

عنوان الخطبة	اللحظة الأخيرة.. حسن الخاتمة وسوء الخاتمة.
عناصر الخطبة	١- لماذا وجلت قلوب الصالحين من الخواتيم؟ ٢- معنى حسن الخاتمة وسوء الخاتمة. ٣- السبيل لحسن الخاتمة. ٤- الخواتيم ميراث السوابق.

الحمد لله العزيز الرحيم، يُوفِّق من يشاء برحمته، ويخذل من يشاء بعدله، وصلى الله على نبيِّنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد، فاتقوا الله عباد الله حقَّ التقوى، وراقبوه في السرِّ والنجوى، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

عباد الله:

صورتان متضادتان: صورة منيرة مضيئة، وأخرى مظلمة كالليل البهيم.

أما الصورة المنيرة: فقد مرَّ النبي ﷺ مع أصحابه على رجلٍ من اليهود ناشِرًا التوراة يقرؤها على ابنٍ له في الموت، وكان من أجملَ الفتيان، فقال له ﷺ: «أَشْذُكَ بِالذِّي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ هَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِكَ ذَا: صِفَتِي وَمَخْرَجِي»، فقال برأسه هكذا -يعني: لا-، فقال ابنه: إني والذِّي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ إِنَّا لَنَجِدُ فِي كِتَابِنَا صِفَتَكَ وَمَخْرَجَكَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ! فَقَالَ ﷺ: «أَقِيمُوا الْيَهُودَ عَنْ أَخِيكُمْ»، ثُمَّ وَلِيَ كَفَنَهُ وَحَنَطَهُ وَصَلَّى عَلَيْهِ. رواه أحمد (١).

وصورة مظلمة قاتمة: يحدثنا عنها أبو هريرة رضي الله عنه فيقول: شهدنا مع رسول الله ﷺ، فقال لرجلٍ ممن يدعي الإسلام: «هَذَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ»، فلَمَّا حَصَرَ الْقِتَالَ قَاتَلَ الرَّجُلُ قِتَالًا شَدِيدًا فَأَصَابَتْهُ جِرَاحَةٌ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! الَّذِي قُلْتَ لَهُ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَإِنَّهُ قَدْ قَاتَلَ الْيَوْمَ قِتَالًا شَدِيدًا وَقَدْ مَاتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِلَى النَّارِ»، فَكَادَ

(١) مسند أحمد (٢٣٤٩٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣٢٦٩).

بَعْضُ النَّاسِ أَنْ يَرْتَابَ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ، إِذْ قِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يَمُتْ، وَلَكِنَّ بِهِ جِرَاحًا شَدِيدًا، فَلَمَّا كَانَ مِنَ اللَّيْلِ لَمْ يَصِرْ عَلَى الْجِرَاحِ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِذَلِكَ، فَقَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ! أَشْهَدُ أَنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ!»، ثُمَّ أَمَرَ بِأَلَّا فَنَادَى بِالنَّاسِ: «إِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ». رواه البخاري ومسلم (١).

إنهما حُسنُ الخاتمة، وسوءُ الخاتمة.

أما والله لا سوا، كما قال ربُّ الأرض والسماء: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْبَبًا وَمَا تَهُمُ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

أمر الله عباده أن يعبدوه وحده لا شريك له، فمنهم من آمن وثبت واستقام، ومنهم من كفر وانتكس بعد إيمان وإحسان.

والله عدلٌ برَّ رحيمٌ، لا يُنزل الأبرار منازلَ الفجار، ولا يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض، لا في الدنيا، ولا عند الموت، ولا في الآخرة.

إن قلوب الأبرار معلقة بالخواتيم.

أتدري لماذا وجلت قلوب الصالحين من الخواتيم؟

قال ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِ». رواه البخاري (٢).

أي إن صلاحها وفسادها، وقبولها وردّها، بحسب الخاتمة، فكيف لا يخشى المؤمن بعد ذلك من سوء الخاتمة؟

(٢) صحيح البخاري (٣٠٦٢)، وصحيح مسلم (١١١).

(٣) صحيح البخاري (٦٦٠٧).

ألم يقل ﷺ: «مَنْ مَاتَ عَلَى شَيْءٍ بَعَثَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ». رواه أحمد (١).

في يوم القيامة، حين يُبعثُ الخلائقُ، سترى من ينزفُ جرحُهُ دمًا لكنَّ ریحَهُ مسكٌ طيبٌ، ماتَ شهيدًا! وترى آخرَ يُلبِّي في أرضِ الحشرِ: لبيك اللهمَّ لبيك، ماتَ محرمًا! وسترى آخرين على هيئةٍ قبيحةٍ، ماتوا عليها وبعثوا عليها! ولا يظلمُ ربُّك أحدًا.

لقد كان سيِّدُ الأنبياءِ محمدٌ ﷺ يتعوذُ بالله من سوء الخاتمة في كلِّ صلاةٍ، يقول: «أعوذُ بالله من فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ». رواه البخاري ومسلم (٢).

أتدري لماذا يتعوذُ النبي ﷺ من الفتنة عند المماتِ؟

لأنَّ الشيطانَ اللعينَ لا يتركُ الإنسانَ حتى عندَ موته، يأتيه فيتخبَّطُهُ، يُريدُ أن يُنسيه «لا إله إلا الله»، يُخوِّفُهُ من لقاءِ الله، يُلقى إليه الوسواسَ، يُريدُ أن يُضلهُ في اللحظة الأخيرة حتى يَختِمَ له بشرًّا.

لذا كان من دعاءِ النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ». رواه أبو داود (٣).

عباد الله:

إنَّ معنى حُسنِ الخاتمة أن يموتَ الإنسانُ على الإسلامِ، على اليقينِ السَّالمِ من الشكِّ والرَّيبِ.

لقد أمرنا ربُّنا أن نثبَّتَ على الإسلامِ حتى نلقاهُ، فقال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» [آل عمران: ١٠٢].

(٢) مسند أحمد (١٤٣٧٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٨٣).

(٣) رواه البخاري (٨٣٢)، ومسلم (٥٨٩).

(١) سنن أبي داود (١٥٥٢)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٢٥/١).

وبذلك وصَّى يعقوبُ بنبيه فقال: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» [البقرة: ١٣٢].

وبذلك دعا يوسفُ عليه السلام فقال: «تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَحْسِنِي بِالصَّالِحِينَ» [يوسف: ١٠١]، ودعا سحرَةُ فرعونَ لما آمنوا: «رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ» [الأعراف: ١٢٦]، ودعوة أولي الألباب: «رَبَّنَا فَاعْفُرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ» [آل عمران: ١٩٣].

حُسنُ الخاتمة: أن يُوفِّقَ اللهُ عبده لعملٍ صالحٍ قبلَ موته، ثم يقبضه عليه.

يُوفِّقُهُ لصلاةٍ، لصومٍ، لصدقةٍ، لحجٍّ أو عمرةٍ، لغزوةٍ في سبيلِ الله، لقولِ الحقِّ وإنكارِ المنكرِ، لصلةٍ رحمٍ أو تلاوةٍ قرآنٍ أو معونةٍ مسكينٍ، ثم يَختِمُ له عُمرَهُ به.

يقول النبي ﷺ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ابْتِغَاءً وَجِهَ اللَّهُ حُتْمَ لَهُ بِمَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ صَامَ يَوْمًا ابْتِغَاءً وَجِهَ اللَّهُ حُتْمَ لَهُ بِمَا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ ابْتِغَاءً وَجِهَ اللَّهُ حُتْمَ لَهُ بِمَا دَخَلَ الْجَنَّةَ». رواه أحمد (١).

ويقول ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَسَلَهُ». قيل: وما عَسَلُهُ؟ قال: «يَفْتَحُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا قَبْلَ مَوْتِهِ ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ». رواه أحمد (٢). شبه ﷺ خاتمة الحسنة بحلاوة العسل، وأنعمَ بها من حلاوة!

(٢) مسند أحمد (٢٣٣٢٤)، وصححه الألباني في أحكام الجنائز (ص ٤٣).

(١) مسند أحمد (١٧٧٨٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١١١٤).

عباد الله:

ما السبيل لتوفيق الله إلى حسن الخاتمة والنجاة من سوء الخاتمة؟

إن من أعظم أسباب حسن الخاتمة أن يحيا الإنسان على عقيدة التوحيد ويعيش على السنّة، متبعا للإسلام ومنهجها، ومن أخطر أسباب سوء الخاتمة فساد المعتقد، أو أن يعيش الإنسان على البدع، أو معرضا عن منهج الإسلام، منقادا خلف مناهج أهل الضلال والخذلان، كالقبرية الوثنية، أو المذاهب اللادينية، كالإحاد والعلمانية والليبرالية والتسوية.

من أعظم أسباب حسن الخاتمة الاستقامة على الطاعة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

ومن أخطر أسباب سوء الخاتمة الإصرار على كبائر الذنوب، والجراة على المحرمات، فإنها تغلب على العبد حتى يخشى أن يمكر به عند الموت، فرمما مات على كبيرة، وحيل بينه وبين التوبة، إذ كيف لعبد عاش في مستنقع الرّني، أو حُبث الرّبا، أو ظلم العباد وأكل أموالهم وانتهاك أعراضهم وإزهاق أرواحهم وأصرّ على ذلك؛ أن يُحتم له بخير؟

ومن أعظم أسباب حسن الخاتمة الصدق مع الله، ومن أخطر أسباب سوء الخاتمة الإيمان الكاذب، كحال المنافقين الذين يخادعون الله وهو خادعهم.

ألم يقل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِن آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ جَحَلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

أبطنوا الكذب ولم يصدّقوا مع الله، فلازمهم النفاق حتى ماتوا عليه.

وهنا أمر يحتاج إلى بيان:

لقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تُعْجَبُوا بِأَحَدٍ حَتَّى تَنْظُرُوا: بِمِ يَحْتَمُّ لَهُ؟ فَإِنَّ الْعَامِلَ يَعْمَلُ زَمَانًا مِنْ عُمُرِهِ أَوْ بُرْهَةً مِنْ ذَهْرِهِ يَعْمَلُ صَالِحًا لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا سَيِّئًا. وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ الْبُرْهَةَ مِنْ ذَهْرِهِ يَعْمَلُ سَيِّئًا لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ النَّارَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا». رواه أحمد^(١).

هل يعني ذلك أنه قد يكون العبد مؤمنا صادقا صالحا ثم يُحتم له بالسوء؟

حاشا لله! إن الله أرحم الراحمين، الشكور الحليم، لا يمكر إلا بالظالمين، ولا يضل إلا الفاسقين، أما الصادقون فإنه يحتم لهم بالسعادة والفوز المبين.

لقد أوضح النبي ﷺ الصابغ فقال: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ». رواه البخاري ومسلم^(٢).

قال العلماء: إن الخواتيم ميراث السوابق، وخاتمة السوء تكون بسبب دسياسة باطنة للعبد لا يعلمها إلا رب العالمين، فنسأل الله العفو والعافية.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعي وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.



(٢) مسند أحمد (١٢٢١٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٣٣٤).

(٨) صحيح البخاري (٢٨٩٨)، وصحيح مسلم (١١٢).

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

عباد الله:

ألا يمكن للعبد أن يصلح ما فات؟

ما أعظم الله التَّوَابَ! فتح لعباده باب الإياب، فمن تابَ لربه تابَ عليه، وفرحَ به، وأسعَ عليه رَحْمَاتِهِ وُودُهُ.

أيُّها الشاردُ عن ربِّك! الغارقُ في بحارِ العَفَلاتِ! عُدْ إلى رُشدِكَ، وتُبْ إلى ربِّ البريَّاتِ! يُصلِحْ لكَّ كلَّ ما فات!

أولمَ تسمعَ عن ذاك الذي قتلَ مئةَ نفسٍ، فلما صدقَ مع الله في توبته تابَ عليه وأحاطتْ به ملائكةُ الرحمة، وتحركتْ لأجله الأرضُ، وغفرَ الله له الرِّلاتِ.

اللهمَّ اجعلْ خيرَ أعمالنا آخِرَها، وخيرَ أيامنا يومَ نلقاك، ووقفنا لتوبةِ نصحِ تمحو بها دُنُوننا، وتسدِّدْ بها مَسِيرنا.

اللهمَّ نجِّ عبادك المستضعفين في غزاة وفي كلِّ مكان، وفرِّجْ عن المكروبين من المؤمنين، وانصُرْ عبادك الموحدين على الصَّهَابِينَة المجرمين.

اللهمَّ آمناً في أوطاننا، وأصلحَ أئمتنا وولاةَ أمورنا، واجعلْ ولايتنا فيمن خافك واتَّقاك، واتبِعْ رضاك.

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

